شهدتُ به فقوموا صدقوه فقلتم : لا نقوم ولا نشاءُ

وفى هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبىّ ، ودعا إلى تصديقه والإيمان به فرسمه نوراً يشع على العباد ورسولا هادياً إلى الرشاد ، يهدى العقول الضالة والأحلام الشاردة ، من يتبعه يرشد :

لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْه عَلَى أَهْل يَثْرِبٍ ركابُ هدًى حَلَّتْ عليهم بأَسْعدِ
نبىٌّ يرى ما لا يرى النَّاسُ حَوْلَهُ ويتلو كتاب الله فى كل مَسْجدِ
وإن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغدِ

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها ، وفى ركابه الهدى والسعود ، يتلو كتاب الله فى كل مسجد ؛ وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصدق رسالته وتسير بهديه . وهذا كله مديح دينى يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ، ويشيد بالإيمان ، ولكنه حين يمتدح شخص النبىّ يختار الصورة المثالية للرجل فى خُلقه وفى خَلقه ، فيراه أحسن الناس وأجملهم :

وأَحْسَنُ منك لم تر قطُّ عينى وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقتَ مبرّأً من كل عيب كأَنك قد خلقتَ كما تشاءُ

وهذا إعجاب ليس له حدّ بجمال الرسول فى خلقه ، فهو أجمل الناس طرًّا لا يستثنى منهم أحداً ، وهو أكملهم ، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد ، فقد خلا من هذا وهذا ، فكان الكمال المجسم ، والخلق المصفى . وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة المديح عند العرب القدماء ، يضيف إليهم مديحه الدينى الخالص حين يقول فى تلخيص الديانة الإسلامية :

أَغرُّ عليه للنبوة خاتمٌ منَ الله مشهودٌ يلوح ويُشْهَدُ